

الباب الثالث

آراء ابن حزم فى الفصل: عرض ودراسة

الفصل الأول: ابن حزم والنبوات.

الفصل الثانى: ابن حزم واليهودية.

الفصل الثالث: ابن حزم والنصرانية.

الفصل الرابع: الصابئة.

الفصل الخامس: ابن حزم والفلاسفة.

obeikandi.com

الفصل الأول ابن حزم.. والنبوات

تحدث ابن حزم في كتابه «الفصل» عن «النبوة» في جوانبها المتعددة من حيث ثبوتها وبراهينها، والرد على المنكرين لها، مبيّنا الفرق بين المعجزة وغيرها من أعمال السحر، وحيل العجائبيين، وسوف نلقى مزيداً من الضوء على تلك المباحث فيما يلي:

أولاً: منكرو النبوات:

يقرر ابن حزم أن البراهمة قالوا بإنكار النبوات، وهم «قبيلة بالهند فيهم أشرف أهل الهند، ويقولون إنهم من ولد «برهم» ملك من ملوكهم، ولهم علامة ينفردون بها، وهي خيوط ملونة بجمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف»^(١) ولا ريب أنه لا صحة لما يقوله المؤلف من أن البراهمة تنسب إلى ولد «برهم» - ملك من ملوكهم - إذ إن الديانة البرهمية منسوبة للإله براهما Brahma وهو عند معتنقي هذه الديانة اسم للإله الخالق^(٢). وقد وقع «الشهرستاني» في نفس الخطأ عندما قال: «وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل يقال له «براهم»»^(٣). وقد ذهب أحد^(٤) الباحثين إلى أن البراهمة لا تنكر النبوات، واستدل على ذلك بدليلين:

أحدهما: أن أبا محمد النويختي عرض لنا في كتابه «الآراء والديانات» مذهب البراهمة فيما يرويه ابن الجوزي فقال: (إن قوما من الهند من البراهمة أثبتوا

(١) الفصل ١ / ٦٩.

(٢) علي وافي: الأسفار المقدسة ١٥١.

(٣) الملل والنحل ٢ / ٣٧٠.

(٤) عمار الطالبي في كتابه عن آراء أبي بكر بن العربي.

الخالق، والرسول والجنة والنار، وزعموا أن رسولهم ملك أتاهم في صورة البشر، من غير كتاب... وأمرهم أن يعبدوا البقر^(١).

ثانيهما: البيروني الذي يعتبر حجة في ديانات أهل الهند وعقائدهم، تحدث في كتابه المشهور: "تحقيق ما للهند من مقوله، مقبولة في العقل أو مرذولة" عن أنبياء البراهمة ورسلم^(٢).

ومما يؤكد هذا الرأي أن القاسم بن إبراهيم - من علماء الزيدية - في كتابه: «الرد على الرافضة» يعتبر أن مذهب البراهمة شبيه بمذهب الرافضة في قولهم بالأوصياء، والأوصياء هم الأئمة الذين تنتقل الإمامة فيهم من الأب إلى الابن بالوصية، وهذا عند كثير من فرق الشيعة، خلافا للزيدية، يقول القاسم: (ص ١١٢ ظ): «وما قالت به الرافضة في الأوصياء من هذه المقالة فهو قول فرقة كافرة من أهل الهند يقال لهم البرهمية، تزعم أنها بإمامة آدم من كل رسول وهدى مكتفية وأن من ادعى بعده نبوة أو رسالة فقد ادعى دعوى كاذبة ضالة، وأنه أوصى بنبوته إلى شيت وأن شيتاً أوصى إلى وصي من ولده، ثم يقودون وصيته بالأوصياء إليهم ولا أدري لعلمهم يزعمون أن وصيته اليوم فيهم» وهذا البيان لمذهب البراهمة من أنهم يعتقدون بنبوة آدم يطابق ما يحكيه سعيد الفيومي (الأمانات والاعتقادات ص ١٣٩) ويطابق - ما أورده القاسم - أيضاً - في رسالة له عنوانها: «الرد على الروافض من أصحاب الغلو» إذ يقول: «وأول من أجاز الوصية وادعى علم آدم قوم يقال لهم الإبراهيمية وجعلوا الوصية وراثية عن أب فأب وهم من الهند يقال لهم الإبراهيمية وهم سادات البلاد، وزعموا أن آدم أوصى إلى شيت وشيت أوصى إلى ابنه، وقادوا الوصية إلى أنفسهم، وزعموا أن الوصية فيهم اليوم، وزعموا أن كل نبي ادعى النبوة بعد شيت مدع كاذب لا يخبرنا بعلم آدم، وقالوا إن الله علم آدم الأسماء والعلم كله... ثم ادعوا بأن العلم الذي نزل من السماء فيهم كامل وأبطلوا كل نبي بعثه الله من ولد آدم^(٣).

(١) عبد الرحمن بدوي، من تاريخ الإلحاد في الإسلام ١٣٨ - ١٣٩ نقلا عن آراء أبي بكر بن العربي ٢٦٩ / ١.

(٢) آراء أبي بكر بن العربي ١ / ٢٦٩.

(٣) انظر: بينيس، مذهب الذرة عند المسلمين ١١٩ - ١٢٠ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة (مكتبة النهضة ١٣٦٥هـ).

وبناء على هذا الرأي يكون ابن حزم قد أخطأ في نسبة إنكار النبوة إلى البراهمة كغيره من المؤرخين المسلمين في شتى مؤلفاتهم، كالباقلاسي، والبغدادي، والشهرستاني^(١).

ويذكر ابن حزم أن البراهمة يستدلون على إنكار النبوة بقولهم:
(أ) إن بعثة الرسل تتنافى مع الحكمة.. لأن الحكيم لا يبعث رسولا إلى قوم يعلم أنهم يعصونه، ويصدون عن دعوته^(٢)..

ويرد ابن حزم هذه الشبهة، لأن البراهمة يقرون أن الله - تبارك وتعالى - خلق أناسا أعرضوا عن الإيمان، وكفروا بوحديته ودلائل قدرته، فليقولوا - إذن - : ليس حكيما من خلق دلائل لمن يدري أنه لا يستدل بها، فإن قالوا: قد استدل بها كثير، قيل لهم: وقد صدق الرسل - أيضا - كثير، فإن قالوا: إنه خلق الخلق كما شاء، قيل لهم: وكذلك بعث الرسل - أيضا - كما شاء، فبعثته - تعالى - الرسل هي بعض دلائله التي خلقها الله - تعالى - ليدل بها على المعرفة به تعالى - وعلى توحيده^(٣)..

(ب) ومن حجج البراهمة - أيضا - قولهم:
"إن كان - الله تعالى - إنما بعث الرسل إلى الناس ليخرجهم بهم من الضلال إلى الإيمان، فقد كان أولى به في حكمته وأتم لمراده أن يضطر العقول إلى الإيمان به"^(٤).
ويرد ابن حزم على هذه الشبهة فيقول:

أنتم تقولون: إن الله خلق الخلق ليدلهم بهم نفسه ووحديته، أليس الأولى - على ذلك الأصل الفاسد - أن يضطر العقول إلى الإيمان به، ولا يكلفهم مؤنة

(١) يقول عمار الطلبي: وقد تفضل أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود فنبهني في مناقشته لرسالتي في الماجستير إلى هذه النقطة التي كنت متبعا لآراء المؤرخين المسلمين الذين أرحوا للمذاهب والملل والنحل (انظر: آراء أبي بكر بن العربي ١ / ٢٦٩).

(٢) انظر: الفصل ١ / ٦٩.

(٣) الفصل ١ / ٦٩ - ٧٠.

(٤) الفصل ١ / ٧٠.

الاستدلال، وأن يلطف بهم ألقاف يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة، خصوصا وأن فيهم من لا يستدل، أو من يغمض عليه الاستدلال؟ كما أن الله - سبحانه - يأتي فعله لا لعله بخلاف جميع خلقه: ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ (سورة: الأنبياء).

ونضيف إلى ما ذكره ابن حزم في الرد على هذه الشبهة: أن اضطرار العقول يفوت كثيرا من أغراض الشارع فيما جاء به الشرع، ويلغى حكمة التفاوت بين الناس، ومهما يكن من أمر، فلو ألهم الإنسان حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض^(١).

وقد أورد الذين أرحوا للعقائد والأديان شيئا أخرى نسبت لطائفة البراهمة - غير التي ذكرها ابن حزم - من هذه: الشبه التي نعتقد أنها أقوى ما أوردوه في هذا الباب: استغنائهم بالعقول عن الأنبياء، ونترك الشهرستاني يصور لنا تلك الشبهة فيقول: «إن الذي يأتي به الرسول لم يخل من أحد أمرين: إما أن يكون معقولا، وإما أن لا يكون معقولا: فإن كان معقولا، فقد كفانا العقل التام بإدراكه والوصول إليه: فأى حاجة لنا إلى «الرسول»؟

وإن لم يكن معقولا، فلا يكون مقبولا، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية، ودخول في حريم البهيمية^(٢).

ولا ريب أن عقل الإنسان وحده غير كافي لتحقيق سعادة الإنسان الدينية والدنيوية، وأن أمر الإنسان لا يستقيم إلا إذا انتهى إلى إنسان مؤيد من السماء متصل بها، بدليل ما نراه من اختلاف العقول وتفاوتها، على أن الناس لو تركوا والاحتكام إلى عقولهم لوقع بينهم تنافس أفسد عليهم حياتهم.. كذلك ليس ثمة ما يمنع أن تأتي الرسل ببعض ما جاءت به العقول على سبيل وجوب ما جوزة العقل أو

(١) عبد الفتاح الفاوي: النبوة بين الفلسفة والتصوف ٧٠.

(٢) الملل والنحل ٢ / ١٢٧١.

تأكيد ما أوجبه ويكون ذلك بمثابة ترادف أدلة العقول، كما أنه عند اختلاف قضايا العقول، وتكافؤ الأدلة تأتي الرسل بما يحسم هذا الخلاف^(١).

ثم إن ما تأتي به العقول قد يكون كلياً فتأتى الرسل بتفصيله، وإذا ساء لنا أن نستعير لسان المعتزلة قلنا: إن بعثة الأنبياء لطف من الله عندئذ، وفي ذلك يقول إخوان الصفا: "فلو أنهم علموا بأن الله - ﷻ - إنما جعل العقل مقدمة أمام الرسالة، وجعل الوحي والرسالة أيضاً مقدمة أمام البعث والقيامة، وجعل البعث والقيامة أيضاً مقدمة للغاية لما قالوا بأن في موجبات العقل كفاية للإنسان عن الوصايا التي جاءت في الرسالة على ألسنة الأنبياء من الأمر والنهي والأحكام والحدود، أترى بأى عقل كان يمكن أن يعلم بأن الإنسان يبعث بعد الموت"^(٢) ومما هو جدير بالذكر أن طائفة البراهمة - التي ذكرها ابن حزم - ليست وحدها التي عرفت بنكران النبوة بين مؤرخي العقائد، وإنما يشار إلى طوائف أخرى أهمها الصابئة، والدهرية، والسمنية^(٣)، كما يشار في الإسلام إلى بعض أفراد تولوا كبر هذا الأمر مثل ابن الراوندى، وأبى زكريا الرازى^(٤).

ومما يروى في إنكار الرازى للنبوة أنه كتب كتابين يهاجم فيهما النبوة ويسخر من الأنبياء، وهما "مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبيين" و"نقض الأديان أو في النبوات" وقد صادف الكتاب الأول نجاحاً لدى بعض الطوائف التي انتشرت فيها الزندقة والإلحاد، وبخاصة لدى القرامطة، ويذهب الأستاذ "ماسنيون" إلى أن أثره

(١) النبوة بين الفلسفة والتصوف ٦٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) يذكر إبراهيم مدكور: أن السمنية ينادون بتناسخ الأرواح، وينكرون النبوة والأنبياء، ولا يرون حاجة البشر إليهم (انظر منهج وتطبيقه ١ / ٨٣) وقد وافقه على ذلك عبد الفتاح الفاوى في رسالته عن النبوة (ص ٦٧) بيد أننا نجد ابن النديم يقول: إنه قرأ بخط رجل من أهل خراسان، أن نبي السمنية "بوداسف" ومعنى السمنية منسوب إلى سمنى، وهم أسخى أهل الأرض والأديان وذلك أن نبيهم "بوداسف" أعلمهم أن أعظم الأمور التي لا تحل ولا يسع الإنسان أن يعتقدها ولا يفعلها قول: لا فى الأمور كلها، فهم على ذلك قولاً وفعلًا، وقول لا عندهم من فعل الشيطان، ومذهبيهم دفع الشيطان. (الفهرست ٤٨٤).

(٤) انظر: - مثلاً - إبراهيم مدكور، منهج وتطبيقه ١ / ٨٤.

امتد إلى الغرب، وكان منيع تلك الاعتراضات التي وجهها عقليو أوروبا إلى الدين والنبوة في عهد "فرديريك الثاني"^(١).

أما الكتاب الثاني فقد وصل إلينا منه فقرات عن طريق غير مباشر في كتاب "أعلام النبوة" لأبى حاتم الرازي (ت ٣٣٠هـ) والذي كان معاصرا ومواطنا للرازي الطبيب، ودارت بينهما مناقشات حادة ومتعددة حضرها بعض العلماء والرؤساء السياسيين^(٢).

ويذكر أبو حاتم أن الرازي يقول: «الأولى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم ولا يفضل بعضهم على بعض فلا يكون بينهم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا. وذلك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض فتصدق كل فرقة إمامها وتكذب غيره، ويضرب بعضهم بالسيف ويعم البلاء ويهلكوا بالتعادي والمجازبات وقد هلك بذلك كثير من الناس»^(٣).

كما يصرح الرازي بأن الأنبياء لا حق لهم في أن يدعوا لأنفسهم ميزة خاصة، عقلية كانت أو روحية فإن الناس كلهم سواسية، وعدل الله وحكمته تقتضى ألا يمتاز واحد على آخر^(٤).

وقد حاول بعض الباحثين أن يبرئ ساحة الرازي من إنكار النبوة، وأن يدافع عن عقيدته في الأنبياء.

من هؤلاء «ابن أبي أصيبعة» الذي أنكر صحة نسبة كتاب «مخاريق الأنبياء» إليه، إذ يقول: «هذا الكتاب - إن كان قد أُلّف - الله أعلم - فربما إن بعض الأشرار المعادين للرازي قد أُلّفه ونسبه إليه، ليسىء من يرى ذلك الكتاب، أو سمع به - الظن بالرازي، وإلا فالرازي أجلّ من أن يحاول هذا الأمر»^(٥).

(١) إبراهيم مذكور: في الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه ١ / ٨٩.

(٢) المرجع السابق ١ / ٩٠.

(٣) أبو حاتم: أعلام النبوة ٣٨ نقلا عن المرجع السابق ١ / ٩١.

(٤) عبد اللطيف العبد: أصول الفكر الفلسفي عند الرازي ١٣٣.

(٥) عيون الأنبياء ٤٢٦.

كما أورد أحد الباحثين فى رسالته عن أصول فلسفة الرازى بعض عبارات تفيد احترامه للنبوّة، من الصلاة والسلام على الرسول - ﷺ - مثل قوله :
 "صلى الله على خير خلقه، محمد النبي وآله^(١)" ومثل : "صلى الله على سيدنا وحبیبنا وشفیعنا، يوم القيامة، محمد ﷺ تسليماً كثيراً، أبداً^(٢)" وهو أيضاً لا ينكر الأديان، ولا سيما فى جانبها الأخلاقى، حيث يقول :
 (ذم الهوى، وردعه، واجب فى كل رأى، وعند كل عاقل، وفى كل دين^(٣)).
 والرازى يحذر الإنسان من السكر، لأنه يقعد المرء عن إدراك جعل المطالب الدينية، وفيه انحطاط لبنى الإنسان^(٤).
 وإن من يهتم بالجانب الروحى فى الإنسان هكذا، لا يمكن أن يكون ملحدًا، وكيف يسوغ لعاقل أن يقول إن الرازى يؤمن بالشرع، وينكر النبوّة والأنبياء؟ فمن الذى أتى بالشرع من عند الله وحيا، إلا الرسل والأنبياء^(٥)؟؟.

* * *

ويستدل ابن حزم على إثبات النبوّة وحاجة البشر إلى رسالات الله ووحيه - بتلك الصناعات والعلوم التى يستبعد أن يهتدى أحد إليها بطبعه فيما بيننا دون تعليم - أى وحى من الله - كالطب، ومعرفة الأمراض وأسبابها، والعقاقير، وكيفية العلاج بها، وإن تجريب كل عقار لكل علة ليحتاج إلى عشرة آلاف من السنين، وأنّى للإنسان أن يشاهد كل مريض فى العالم، ليجرب كل عقار فى كل علة، ومتى يتهيأ ذلك، وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لا بد منه فى أمر المعاش، وكاللغة التى لا يتيسر العيش للمرء بدونها ولا سبيل إلى الاتفاق عليها وتحديد مصطلحاتها إلا بلغة أخرى، فصح أنه لا بد من مبدأ ما للغة..

(١) سر الأسرار ١١٨ نقلا عن أصول الفكر ١٤٢.

(٢) براء الساعة ١٣، المرجع السابق ١٤٢.

(٣) الطب الروحى ٤٨ - ٤٩ تحقيق عبد اللطيف العبد.

(٤) السابق ٩٤.

(٥) أصول الفكر الفلسفى ١٤١.

وكذلك كل ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه من حرث، وحصاد، وعجن، وطبخ، واستخراج الأدهان، ودق الكتان، وغزل القطن وحيآكته، وآلات كل ذلك، وحفر الآبار، وتربية النحل، ودود الخز، واستخراج المعادن، وعمل الآنية منها، ومن الخشب والفخار، وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم.. فوجب بالضرورة ولا بد أنه لابد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداء كل هذا دون معلم لكن بوحى حقه عنده، وهذه صفة النبوة^(١).

ومما يدل على أن رسل الله وأنبياءه هم الذين علموا البشر أصول المعارف وأوائل الصناعات أننا نجد من لم يشاهد هذه الأمور لا يستطيع اختراعها، كالذى يولد وهو أصم فإنه لا يمكنه الاهتداء إلى الكلام ولا إلى مخارج الحروف، وكالبلاد التى ليست فيها بعض الصناعات والعلوم، لا سبيل إلى اهتداء أحد منهم إلى علم لم يعرفه، ولا إلى صناعة لم يعرف بها، فلا سبيل إلى تهديهم إليها البتة حتى يعلموها.. فصح بذلك أنه لابد من وحى من الله تعالى فى كل ذلك^(٢).

ثانيا: براهين النبوة:

ويقرر ابن حزم من براهين النبوة ودلائلها إحالة الطبائع المخالفة لما بُنى عليه العالم، ووجود أشياء كانت فى حكم الممتنع، وذلك كعصا موسى التى انقلبت حية، وناقصة صالح التى انفلقت عن صخرة، وإحياء عيسى للموتى، ومئات الناس الذين رووا وتوضئوا من قدح يسير معجزة لمحمد - ﷺ - مما جعلنا نعلم - يقينا - أن صانع هذه المعجزات ومحيل تلك الطبائع عن خصائصها هو الله - سبحانه - تصديقا لأنبيائه ورسله^(٣)..

ولا فرق عن المؤلف بين مشاهدة المعجزة وتناقلها عن طريق التواتر فى الدلالة على صحة النبوة وصدق مدعيها، لأن نقل الكافة لها يمنع من جواز الكذب فيها..

(١) الفصل ١ / ٧٢.

(٢) نفس الموضع.

(٣) الفصل ١ / ٧٣.

ومن ثم فمن يتجاهل معجزة لم يشاهدها وأنكرها، خرج - كما يقول المؤلف - عن كل معقول، ولزمه أن لا يصدق أن من غاب عن بصره من الإنس بأنهم أحياء ناطقون كمن شاهد، وأن صورهم على حسب الصور التي عاين.. إذ لا يعرف أحد أن كل من غاب عن حسه فإنه في مثل كيفية ما شاعد من نوعه إلا بنقل الكواف - التواتر - فوجب تصديق ذلك ضرورة كبلاد السودان وما أشبه ذلك^(١).

ويرى ابن حزم أن الله - سبحانه - لا يظهر معجزة إلا على يدي الأنبياء تصديقا لرسالتهم، وتأييدا لهم.. أما الفسقة والكاذبون فلا تظهر على أيديهم خارقة، ولا يمكنهم أن يحيوا طبيعة أو يقلبوا عينا، إذ إن في ظهور المعجزات والخوارق على أيديهم فيه تلبيس في الدين، والله - سبحانه - وعد عبادة أن يبين لهم الرشد من الغي.

يقول ابن حزم: «حاشا لله أن يظهر آية على يد من يمكن أن يكذب أو يأمر بباطل^(٢)» ويقول أيضا: «والمعجزات لا يأتي بها أحد إلا الأنبياء - ﷺ^(٣)» - وعند حديثه عن المعجزات نراه يقرر «أنه لا يقلب أحد عينا، ولا يحيل طبيعة إلا الله - ﷻ - لأنبيائه فقط.. وأنه لا يمكن وجود شيء من ذلك لصالح ولا لساحر ولا لأحد غير الأنبياء - ﷺ^(٤)».

وإذا كان الله - سبحانه - لا يظهر آية على يد كاذب من الناس، فإن هذا لا يعني - عند ابن حزم - أن نصف المولى - ﷻ - بالعجز عن ذلك، لأن وصف الله بتلك الصفة تتنافى مع ما يجب للباري من أسماء الجلال والكبرياء والقدرة.. ولذلك ينبه ابن حزم على «أن الله تعالى قادر على إظهار الآيات على أيدي الكذابين المدعين

(١) الفصل ١ / ٧٤.

(٢) الفصل ١ / ١٨٤.

(٣) المحلي ١ / ٣٦.

(٤) الفصل ٥ / ٢.

للنبوة، لكنه تعالى لا يفعل، كما لا يفعل ما لا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه^(١)».

وقد عنف ابن حزم الباقلانى عندما قال عن الله - سبحانه - «إنه لا يقدر على إظهار آية على يد لسان متنبئ كاذب^(٢)» ورد عليه بقوله: «قول الباقلانى إن الله تعالى لا يقدر على إظهار آية على يد كذاب فهو داخل فى جملة تعجيزه البارى تعالى وهو أيضا تعجيز سخيف، داخل فى جملة المحال^(٣)».

وقد فهم أحد^(٤) الباحثين من هذا النص جواز ظهور المعجزة على يد الكاذب عن ابن حزم، وقال بالحرف الواحد: «ويرى ابن حزم جواز ظهور المعجزة على يد كاذب، لأن منعها يؤدي إلى تعجيز الرب - وهو كما يقول - تعجيز سخيف داخل فى جملة المحال، وإذا جوزنا ظهورها على يد الساحر فلنجوزها على يد الكاذب من غير تفريق^(٥)».

ونعتقد أن هذا فهم خاطئ، إذ إن النصوص التى أثرت عن ابن حزم تعنف من يعتقد ذلك أو يقول به.. ومن ثم نراه يتحدث عن معجزات الأنبياء وثبوتها لهم بالمشاهدة أو بالتواتر الموجب للعلم، ثم يقول: «وبقى ما عدا الأنبياء - ﷺ - على الامتناع فلا يجوز البتة وجود ذلك لا من ساحر ولا من صالح بوجه من الوجوه، لأنه لم يقد برهان بوجود ذلك ولا يصح به نقل، وهو ممتنع فى العقل^(٦)».

ومما يزيد المسألة وضوحا أن المؤلف فى كتابه «الفصل» يورد ما جاء فى سفر الخروج (٧: ١٩) من أن هارون ألقى العصابين يدي فرعون وعبيد فصارت حية فدعا فرعون بالعلماء والسحرة وفعلوا مثل ذلك».

(١) الفصل ٥ / ٢.

(٢) الموضوع السابق.

(٣) الفصل ٥ / ١١.

(٤) عبد الفتاح القاوى فى رسالته عن النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم).

(٥) المرجع السابق ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٦) الفصل ٥ / ٣.

ويعلق ابن حزم - على قول التوراة - قائلا: «... لو صح هذا لبطلت نبوة موسى - عليه السلام - بل نبوة كل نبي، ولو قدر السحرة على شيء من جنس ما يأتي به النبي لكان باب السحرة وباب مدعى النبوة واحدا، ولما انتفع موسى بازدياد عصاه لعصيتهم... ولما كان لموسى عليهم بنبوته أكثر من أنه أعلم بذلك العمل منهم فقط، وكان فرعون صادقا قوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾^(١) (سورة الشعراء: ٤٩).

وعبارة الباحث التي أوردتها ونسبها إلى ابن حزم: «... وإذا جوزنا ظهورها على يد الساحر فلنجوزها على يد الكاذب من غير تفريق» نعتقد أنها ليست من كلام ابن حزم، وكنا نود أن نعرف مصدرها، لو كان لها مصدر؟!.

وعجيب أن يخفى على ابن حزم - وهو إمام جليل - الفرق بين السحر ومعجزات الرسل حتى يقول الباحث في رسالته: "ونبادر فنقول لابن حزم إن المعجزة لم تظهر على يد الساحر، وما يفعله السحرة لن يبلغ مبلغ المعجزات، لأنه من باب التخييل واستهواء الأنظار"^(٢) وكيف عرف الباحث أن ابن حزم يقول بظهور المعجزة على يد الساحر؟ ألم يقرأ ما كتبه الرجل منذ أكثر من عشرة قرون عندما رفض تلك الشبهة، وكفر القائلين بها؟؟ استمع إليه - وكأنه يدافع عن نفسه - : «السحر حيل وتخييل لا يحيل طبيعة أصلا، قال الله - تعالى - ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنهَاتَانِ﴾ فصح أنها تخييلات لا حقيقة لها، ولو أحال الساحر طبيعة لكان لا فرق بينه وبين النبي، وهذا كفر ممن أجازوه"^(٣).

ونعتقد أن في النصوص التي نقلناها عن ابن حزم تبرئته للرجل مما نسب إليه..

ولكن إذا كان ابن حزم يمنع ظهور المعجزة إلا للأنبياء - كما بينا - فما هو الفرق إذن بين المعجزة وغيرها من السحر وألوان الحيل، وكيف يمكن للمرء أن يفرق بينهما؟؟.

(١) الفصل ١ / ١٥٤.

(٢) النبوة بين الفلسفة والتصوف ٢٠٦.

(٣) المحلى ١ / ٣٦ - ٣٧.

يحدد المؤلف معجزات الأنبياء التي تخص بهم ولا يقدر عليها غيرهم فيما يأتي:

(أ) اختراع الجواهر من العدم إلى الوجود:

وذلك كالماء النابع من أصابع رسول الله - ﷺ - بحضرة الجيش^(١).

(ب) قلب الأعميان، وإحالة الطبايع:

وذلك كقلب العصا الحية وحنين الجذع، وإحياء الموتى الذين رموا وصاروا عظاما، والبقاء في النار ساعات لا تؤذيه وما أشبه ذلك^(٢).

(ج) إحالة الأعراض التي لا تزول إلا بفساد حاملها:

وذلك كالقطس والقصر والزررق وسواد الزنجي ونحو ذلك فهذا لا يقدر عليه أحد دون الله - تعالى - بوجه من الوجوه^(٣).

(د) إحالة الذاتيات:

ومن ذلك صرف الحواس عن طبائعها كمن أراك ما لا يراه غيرك، أو مسح يده على مريض فأفاق، أو سقاه ما يضر علقته فبرئ، أو أخبر عن الغيوب في الجزئيات عن غير تعديل ولا فكرة، فهذه كلها إحالة الذاتيات... ولا تكون إلا لنبي^(٤)..
أما الأعمال التي يستطيعها غير الأنبياء من السحرة وأرباب الحيل، فمنها:

(أ) الطلسمات:

كتنفير بعض الحيوانات عن مكان ما فلا يقربه أصلا وكإبعاد البرد ببعض الصناعات وما أشبه ذلك..

(١) الفصل ١ / ٧٦.

(٢) الفصل ١ / ٧٦.

(٣) الفصل ١ / ٧٦ وانظر - أيضا - ١٦ / ٥.

(٤) الفصل ١ / ٧٦ - ٧٧.

ويقول ابن حزم عن الطلسمات: «ليس إحالة طبيعة ولا قلب عين ولكنها قوى ركبها الله - ﷻ - مدافعة لقوى آخر كدفع الحر بالبرد، ودفع البرد بالحر»^(١).
ولا ينكر الطلسمات - فى رأى ابن حزم - إلا معاند، لأنه شاهد بنفسه آثارها الظاهرة^(٢).

(ب) الرقى:

وهو كلام مجموع من حروف مقطعة فى طوابع معروفة أيضا يحدث لذلك التركيب قوة تستثار بها الطبائع وتدافع قوى آخر، ويستدل ابن حزم على صحة الرقى بالمشاهدة، فيقول:

«وقد شاهدنا وجربنا من كان يرقى الدمّل الحاد القوى الظهور فى أول ظهوره فييبس، يبدأ من يومه ذلك بالذبول ويتم ييبسه فى اليوم الثالث ويقلع كما تقلع القرحة إذا تم ييبسها جربنا من ذلك ما لا نحصيه»^(٣).

(ج) حيل العجائبين:

وذلك كمن يضرب بسكينة فى جسم إنسان فيظن من رآه ممن لا يدري حيلته أن السكين غاصت فى جسم المضروب، وليس كذلك بل كان نصاب السكين مثقوبا فقط فغاصت السكين فى النصاب^(٤)، وغير ذلك من الحيل والعجائب التى يستطيعها كل من تعلمها..

ثالثا: نبوة النساء:

هل يمكن أن تكون فى النساء نبوة؟ هذا ما وقع فيه الخلاف بقرطبة فى عصر ابن حزم، فمنهم من منع ذلك وبدع من قال به.. مستدلا بقول الحق - سبحانه

(١) الفصل ٥ / ٤.

(٢) نفس الموضع.

(٣) الفصل ٥ / ٤.

(٤) الفصل ١ / ٧٦.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧) ومنهم من أجازته مثل ابن حزم الذي يرى أن هذه الآية خاصة بالرسالة دون النبوة ويقول: «إنها مأخوذة من الإنباء والإعلام، فمن أعلمه الله - ﷻ - بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئًا له بأمر ما فهو نبي بلا شك»^(١) يفرق صاحبنا بين النبوة وبين غيرها من أنواع الإلهام، والكهانة، والرؤيا.. فيقول: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ ﴾ (سورة النحل: ٦٨) والكهانة تكون من استراق الشياطين من السماء فيرمون بالشهب الثواقب، كما أن الكهانة انقطعت بمجيء رسول الله ﷺ والرؤيا كذلك لا يُستيقن بصدقها أو كذبها، وهذا كله بخلاف الوحي الذي هو «النبوة» فإنه قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحي إليه بما يعلمه به ويكون عند الوحي به إليه بما يعلمه به ويكون عند الوحي به إليه حقيقة خارجة عن الوجوه المذكورة، يحدث الله ﷻ لمن أوحى به إليه علما ضروريا بصحبة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء. لا مجال للشك في شيء منه إما بمجيء الملك به إليه وإما بخطاب يخاطب به في نفسه وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم^(٢).

ويذكر ابن حزم نماذج للنساء اللاتي أوحى إليهنّ وشرفهنّ الله بالنبوة مثل «أم إسحاق» التي أرسل الله إليها ملائكة بشرتها بإسحاق فقال - ﷻ - ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ (٧١) قَالَتْ يَوْتِلَيْهِ أَلِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ (سورة: هود) فهذا الخطاب من الملائكة لأم إسحاق لا يكون لغير نبي بوجه من الوجوه^(٣)

كما أن القرآن يقص علينا خبر «مريم» عليها السلام التي أرسل الله إليها جبريل - ﷻ - وخاطبها بقول ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ﴿١٦﴾ (سورة: مريم) فهذا - عند ابن حزم - نبوة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من

(١) الفصل ٥ / ١٧.

(٢) الفصل ٥ / ١٧.

(٣) الفصل ٥ / ١٨.

الله - تعالى - إليها، ومما يؤيد ثبوتها أن زكريا - عليه السلام - كان يجد عندها رزقا واردا من الله - سبحانه - :

وممن أوحى الله إليها بالقاء ولدها فى اليم «أم موسى» وأعلمها - سبحانه - أنه سيرده إليها ويجعله من المرسلين.. ولا ريب أن «أم موسى» لو لم تكن واثقة بنبوة الله - سبحانه - لها لكانت بالقاءها ولدها فى اليم برؤيا تراها أو بما يقع فى نفسها فى غاية الجنون «فصح يقينا أن الوحي الذى ورد لها فى إلقاء ولدها فى اليم، كالوحي الوارد على إبراهيم فى الرؤيا فى ذبح ولده، فإن إبراهيم - عليه السلام - لو لم يكن نبيا واثقا بصحة لوحى والنبوة.. لكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقا فى نهاية الفسق أو مجنونا فى غاية الجنون.. فصحت نبوتهن بيقين^(١)».

وليس وصف الله لمريم - عليها السلام - بأنها صديقة بمانع من أن تكون نبية، فقد قال الله - سبحانه - ﴿يُؤَسِّفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ (سورة يوسف: ٤٦) وهو مع ذلك نبي رسول.

ويستدل ابن حزم على نبوة امرأة فرعون بقول رسول الله ﷺ كمل من الرجال كثيره، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون^(٢) والكمال فى الرجال لا يكون إلا لبعض المرسلين - ﷺ - لأن من دونهم ناقص عنهم بلا شك، وكان تخصيصه ﷺ مريم وامرأة فرعون تفضيلا لهما على سائر من أوتيت النبوة من النساء بلا شك، إذ من نقص عن منزلة آخر ولو بدقيقة لم يكمل، فصح بها الخبر أن هاتين المرأتين كملتا كمالاً لم يلحقهما فيه امرأة غيرهما أصلا، وإن كن بنصوص القرآن نبيات^(٣).

(١) الموضع السابق.

(٢) رواه البخارى (١٩٣/٤، ٢٠٠) «باب ضرب الله مثلا للذين آمنوا» وورد أيضا فى (٣٦/٥) باب فضل

عائشة رضى الله عنها.

(٣) الفصل ٥ / ١٨.

رابعاً: الرد على من زعم أن في البهائم رسلاً:

وقد عنف «ابن حزم» أحمد بن حابط - الذي كان يظهر الاعتزال - وحكم بكفرة لأنه زعم أن الله - ﷻ - نبأ أنبياء من كل نوع من أنواع الحيوان حتى البق والبراغيث والقمل^(١) ولقد أراد أن يستند في زعمه هذا إلى قول الله - سبحانه - ﴿وَمِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيْرٌ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيْرٌ﴾ (سورة: فاطر).

يوضح ابن حزم فساد هذا الاستدلال بأن الله - سبحانه - يخاطب الناس الذين منحهم نعمة العقل، وخصهم بفضيلة النطق: «الذي هو التصرف في العلوم ومعرفة الأشياء على ما هي عليه^(٢)» فانه - تعالى - لا يخاطب بالشرائع إلا من يعقلها ويعرف المراد بها، مصداقاً لقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦). ولا ريب أن الحيوان ليس لديه القدرة على فهم الشرائع، ومن ثم فهو غير مخاطب بها ويكون معنى قوله تعالى: ﴿أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) أى أنواع أمثالكم إذ كل نوع يسمى أمة، وأن معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيْرٌ﴾ (سورة: فاطر) إنما عنى - تعالى - الأمم من الناس، وهم القبائل والطوائف^(٣) وليس فى قصة الهدهد التى وردت فى كتاب الله، ولا فى قول النملة ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ﴾ (سورة النمل: ١٨) دليل على أن الحيوانات تعقل وتدرک، لأن قصة الهدهد والنملة معجزتان وآيتان لسليمان - عليه السلام - ككلام الذراع وحنين الجذع، وتسبيح الطعام لمحمد ﷺ آيات لنبوته ﷺ^(٤).

(١) الفصل ١ / ٧٨.

(٢) الفصل ١ / ٧٩.

(٣) الفصل ١ / ٧٩.

(٤) الفصل ١ / ٨١.